

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله ، وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم
المجتبى .

أما بعد . .

فما لا ريب فيه أن كل المشفقين على مسار الأمة ، وكل القوى
والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية ، متفقون على أن أمتنا تعيش
فى أزمة حقيقية ، تعددت أعراضها ، وتنوعت آثارها ، وإن اختلفوا فى
تعيين جوهر الأزمة : ما هو ؟

أهى أزمة إيمان وأخلاق ، كما يَصَوِّرُها دعاة الدين والفضيلة ؟

أم هى أزمة فكر ومعرفة كما يَصَوِّرُها رجال الفكر والثقافة ؟

أم هى أزمة حرية سياسية وديمقراطية ، كما تصوِّرُها القوى المعارضة للنظم
الحاكمة ؟

أم هى أزمة علم وتكنولوجيا ، كما يَصَوِّرُها كثير من دعاة الإصلاح ،
ومن رجال الفكر أنفسهم ؟

لقد ردد كثيرون مع شوقى قوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا !

ولكن الدكتور زكى نجيب محمود علق على ذلك بقوله :

لولا خشيتى سوء التأويل لعارضت شاعرنا ، لأقول له : وإنما الأمم فى يومنا

التقنيات ما اطردت وتغلغلت ، فإن هم انعدمت علومهم وصناعاتهم وتقنياتهم ، تخلفوا إلى حيث لا أمل ولا رجاء ، اللهم إلا إذا فهمنا الأخلاق بمعنى يجعل منها أن أعرف كيف يُضغَط على الأضرار ومتى .

وآخرون قالوا : إنما الأمم الأفكار والثقافة .

وغيرهم قالوا : إنما الأمم الحرية لوطنها ، والحقوق لشعبها .

والأولى من ذلك أن ندع وحدانية التعليل والتفسير ، إلى الشمول والتعدد .

إن « التفسير الواحدى » للتاريخ وللواقع لم يعد مقبولا ، لأنه يبصر الحقيقة من زاوية واحدة ، ويغفل زواياها الأخرى ، وهو يبسط الأمور المعقدة والمتشابكة .

إن نهضة الأمم تؤثر فيها الثقافة ، كما تؤثر فيها السياسة والاقتصاد والتشريع والتربية وغيرها .

ومهما يكن الاختلاف فى تحديد جوهر الأزمة ، فأحسب أنه لا يخالف أحد فى أهمية دور الثقافة فيها ، وخصوصاً الجانب الفكرى والأدبى والفنى منها . وذلك لما لها من تأثير فى الأخلاق والسلوك ، ومن تأثير فى السياسة والحكم ، وتأثير فى توجهات الشعوب إلى التقدم أو التخلف ، إلى العلم والعمل ، أو إلى الكلام والجدل .

فلو صحَّت ثقافة أمة واستقامت ، وتكاملت وتوازنت وسلمت من عوامل التشويه والتحريف - كما هو الأصل فى ثقافتنا - لكان لها أثرها البالغ فى صحة توجه الأمة واستقامتها وتكاملها وتوازنها . وإذا حدث العكس كانت النتيجة عكسية كذلك ، لأن الثمرة من جنس الشجرة . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ (١)

(١) الأعراف : ٥٨

أما قضية « الأصالة والمعاصرة » فى ثقافتنا فهى قضية قديمة جديدة .

فمنذ كنا طلاباً صغاراً ، ونحن نقرأ ونسمع ونتابع أنباء صراع فكرى أدبى محتدم بين تيارين متعارضين يعبر عن أحدهما بـ « القديم » ، ويعبر عن الآخر بـ « الجديد » .

ومما قرأناه من آثار هذه الحرب التى تسلّ فيها الألسنة لا الأسنة ، وتشحذ فيها الأقلام لا السيوف : كتاب « تحت راية القرآن » أو « المعركة بين القديم والجديد » لأديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعى ، الذى شنّ فيه الغارة على الدكتور طه حسين وكتابه عن « الشعر الجاهلى » .

وفيه سخر الرافعى من هؤلاء « المجددين » الذين يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر !

ومما قرأناه شعراً من آثار هذه المعركة قول أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدته الشهيرة عن « الأزهر » مشيراً إلى الغلاة من دعاة التجديد ، وأعداء القديم :

دع عنك قول عصابة مفتونة	يجدون كلّ قديمٍ أمرٍ منكراً !
ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا	من مات من آبائهم أو عمّراً !
من كلّ ساعٍ فى القديم وهدمه	وإذا تقدّم للبناء قصّراً !
وأتى الحضارة بالصناعة رثّة	والعلم نزراً ، والبيان مثرثراً !

كما قرأنا قول « إقبال » عن هؤلاء المجددين : إن جديدهم هو قديم أوروبا .
كما ذكر هؤلاء بأن الكعبة لا تجدد ، ولا تستجلب لها حجارة من الغرب !

واستمرت هذه المعركة بين التيارين المتضادين ، ظاهرة حيناً ، وخفية فى معظم الأحيان ، يشتعل أوارها كلما ظهر كتاب بالغ الجرأة ، أو نشرت مقالة كذلك ، وتخبو جذوتها كلما مضت الحياة على وتيرتها المعتادة .

كان التيار الأول يمثل القديم الموروث فى ثباته وشموخه ، وكان التيار الآخر يمثل الجديد الوافد فى بريقه وإغرائه .

وكان يمثل الدفاع عن التيار الأول : رجال الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعى ، ومَن دار فى فلکهم فى مصر ، وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية .

وكان يمثل التيار الآخر : خريجو المدارس والكليات الأجنبية فى الداخل ، وخريجو الجامعات الغربية والوافدون من الخارج ، ومَن تتلمذ عليهم ، وحطب فى جبلهم .

ولا ريب أنه وجد غلاة فى كلا الفريقين . ففى مقابل الذين يريدون تجديد الكعبة والشمس والقمر ، وجد الجامدون على كل قديم ، الذين يريدون أن يوقفوا حركة الفلك ، وسير التاريخ ، شعارهم : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! وضاع الوسط بينهما .

وقد لخص الموقف علامة الشام محمد كردعلى فى بحثه « القديم والحديث » بقوله : ها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، والأمة شطران : شطر نر إلى البلاهة والغباوة ، وشطر إلى الحمق والتفرفة . وبعبارة أخرى : نسينا القديم ، ولم نتعلم الجديد !

كانت عناوين النزاع بين التيارين تختلف من فترة لأخرى ، ولكن المضمون فى النهاية واحد . إلا أن التيار الأول يحمل فى الغالب عنواناً منفقراً مستنكراً ، على حين يحمل التيار الآخر عنواناً جذاباً مغرياً .

تجد ذلك بيئاً واضحاً فى العناوين التى استخدمت فى التعبير عن هذا الصراع : القديم والجديد ، التقليد والتجديد ، المحافظة والتحديث ، الجمود والتحرر ، الرجعية والتقدمية .

حتى انتهى أخيراً إلى العنوان السائد اليوم ، الذى يحمل ثنائية مقبولة إذا أعطيت الكلمة حقها من الفهم والتحليل ، وهى ثنائية التكامل ، لا ثنائية

التضاد والتقابل ، وهو « الأصالة والمعاصرة » ، وفى وقت ما عبر عنه بـ « الأصالة والتجديد » . وقد قدمت فيه دراسات ، ونظمت ندوات وحلقات (١) .

وبحثنا هذا يتحدث عن « ثقافتنا العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة » .
هكذا حدده لى الإخوة الزملاء فى كلية « الإنسانىات والعلوم الاجتماعىة » بجامعة قطر ، الذين خططوا لهذه الندوة الفكرىة العلمىة ، التى تدور بحوثها حول هذا الموضوع المهم : « الثقافة العربىة : الواقع وآفاق المستقبل » .
ولا ريب أن قضىة « الثقافة العربىة » قضىة بالغة الأهمىة ، ولا غرو أن عقدت حولها عدة ندوات ، ومؤتمرات فى أكثر من بلد ، تبحث فى جانب أو أكثر من جوانبها المتعددة .

وبدو أن الإخوة الزملاء أرادوا إرضائى أو إغرائى ، فجعلوا عنوان بحثى على وجه الخصوص : الثقافة العربىة الإسلامىة . . إلخ . ولم يكتفوا بوصف العربىة وحده ، فهل يمكن أن تكون ثقافتنا عربىة غير إسلامىة ؟
هذا ما ينبغى أن نبخته هنا : ماهىة ثقافتنا : أهى عربىة أم إسلامىة ؟ أم هما معاً ؟

وما مكونات هذه الثقافة وخصائصها ؟

وما معنى هاتىن الكلمتىن اللتىن اشتهرتا على اللسنة والأقلام ، ورددهما الناس هنا وهناك ، دون تحديد بىن لمفهوماهما : الأصالة والمعاصرة ؟
وما المقصود بهما فى نظرنا نحن المؤمنىن برسالة الإسلام ، وخلود دعوته ،

(١) من ذلك : الندوة التى نظمها « مركز دراسات الوحدة العربىة » عن « التراث وتحديات العصر فى الوطن العربى » ، أو « الأصالة والمعاصرة » بالقاهرة فى سبتمبر سنة ١٩٨٤ م ، ونشرت بحوثها ومناقشاتها فى مجلد ضخم .

وبقاء أمته ، واستمرار كتابه - بلسانه العربى المين - محفوظاً ، كما وعد الله : ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ (١) .

هذا ما نرجو الله - تباركت أسماؤه - أن يوفقنا بفضلله إلى إلقاء شعاع من ضوء ، محاولة لإزاحة الضباب والغبش عنه ، بقدر جهدنا الكليل ، وزادنا القليل . وسنقسم دراستنا هذه إلى أربعة فصول وخاتمة .

﴿وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٢)

الدوحة : رمضان سنة ١٤١٣ هـ (مارس ١٩٩٣ م) .

يوسف القرضاوى

* * *